

بدائل

العلم والتقليد في خدمة الزراعة العضوية

خبر ومله

الشجر قبل البشر؟

رامي زريق

يحمل الربيع معه كل عام وفوداً من العائدين إلى رحاب الطبيعة: حقول الأزهار الموسمية، رفوف الطيور المهاجرة، ومجموعات المتزهين البيئيين، وعشاق المشي في الجبال والأحراج. يأتون من كل أنحاء الوطن إلى القرى والأرياف النائية، على متن سياراتهم الرباعية الدفع، مرتدين أحذية متخصصة، ثنائية الدفع، حاملين معهم مياههم المعبأة وموتتهم المستوردة. ما أجمل منظرهم، بثيابهم الملونة الزاهية، وقوافل تتسلق جبال أكروم، وهضاب الضنية، وتتوغل في غابات وادي جهنم. ينشرون هياهم بها عبر القارات، في الصور الفنية والحكايات المشوقة، التي تنتقل عبر الفيسبوك والمدونات الإلكترونية. يحرصون عليها كأنها جزء منهم، فهم حراسها وأموروا أحراجها، يتأكدون من سلامتها وصحتها عند كل رحلة. والويل لمن يتجرأ على أن يقطع شجرة، أو أن يحفر تلة رمل البيئيين بالمرصاد، هواتفهم المحمولة في أيديهم، مستعدون للاتصال بهذا الوزير الشاب، المعني بدور المجتمع المدني، أو بذلك النائب الساهر على نظافة البيئة وسلامتها. هم قادرون، من خلال معارفهم، على تحريك الوسائل الإعلامية الضجرانة والمضجرة، لتغطي الانتهاكات والتعديتات على لبنان الأخضر. معلمهم لا يتوقف، والأمثلة عن جدواه وجديته لا تنتهي. فمئذ قرابة أسبوعين، مثلاً، وقع نظر إحدى هذه المجموعات على كمية من أشجار الأرز المقطوعة في جرود عكار. بغضون أيام، كان البلد كله معني بالموضوع، وتفشى الذعر في صدور الفاعلين. طبعاً، هم مشكورون، على اهتمامهم بالطبيعة وسهرهم عليها، لكنهم مطالبون أيضاً بالالتفات إلى الأوجه الأخرى من الظلم في المناطق التي يقصدونها، فلم نسمع يوماً عن متزهين بيئيين رفعا هواتفهم وصنعوا الخبر حين صادفوا أطفالاً خارج مدرسة أقتلت أبوابها، يعملون لمساعدة أهلهم الأميين الذين يعيشون تحت خط الفقر.

بينما يزرع المزارع العكاري تحت وطأة عوامل الإنتاج والتصريف، ينفرد أحدهم، أحمد أبو كدل، بنوع مميز من الزراعة جعله مقصد التواقين لغذاء لم تلوثه سموم العصر: الزراعة العضوية التي تخصص هو وعائلته بإنتاجها

عكار - روبر عبد الله

يقعد صبيحة كل يوم على مصطبة تطل على مزرعته. لا تحلوه القهوة إلا وهو ينظر إلى أبنائه وقد بدأوا العمل لإنتاج «أوسع تشكيلة من منتجات الزراعة العضوية في لبنان». هكذا يصف أحمد أبو كدل، الشهير بكنيته «أبو ربيع»، مزرعته في بلدة ببنين. منزل أبي ربيع عبارة عن ثلاثة طوابق يسكن فيها مع أبنائه الخمسة عشر. جميعهم يعملون معه في المزرعة. المتزوج كما العازب، الموظف أو غير الموظف، من أكمل تعليمه ومن لا يزال يتعلم. على بعد أمتار من المبنى المذكور، يجهز أبو كدل مبنى آخر، لأنه لا يفكر في ترك أحد من أبنائه يبتعد عن المزرعة. حتى عام 2001 كان يمتلك مع إخوته جرافات وجرارات يستخدمونها في مجال استصلاح الأراضي الزراعية. وفي تلك الأثناء

تحمّل دمجاً للخبرات العلمية الحديثة في إطار العملية الزراعية، مثل فرض حراثة تقتصر على عشرة سنتمترات تحت التراب حيث المواد العضوية المغذية والخالية من المواد المضرة. الزراعة العضوية ليست عالية الأرباح، لكن الربح الحقيقي يأتي من خلال مساهمة أفراد العائلة في عملية الإنتاج. فابناء الأسرة يبدون حرصاً أكبر في عملهم لأنهم في النهاية «أصحاب الرزق» بخلاف «المأجورين الذين لا يهمهم سوى قبض أجورهم في آخر النهار». لذلك لم يستخدم أبو ربيع سوى أجير واحد في السنة الحالية بعدما شغل الوظيفة أحد أبنائه، ما أعاق جزئياً هذا الأخير عن القيام بواجباته تجاه المزرعة. انتسب ربيع الابن الأكبر لأبو كدل إلى المدرسة الزراعية في العبدوة وكان الأول في صفه طوال أعوام الدراسة، لأنه كان يدرس من ناحية ويعمل في الزراعة من ناحية أخرى. تخرّج ربيع مهندساً زراعياً، وتعمقت خبرة العائلة في مجال الزراعة العضوية، فانتقلوا إلى تصنيع منتجاتها، من الزيتون وزيت الزيتون، إلى ماء الزهر وماء الورد، وورق العنب والصعتر وحبس الرمان، ورب البندورة وصلصة البندورة ومكدوس الباذنجان. وكل تلك المصنوعات الخفيفة تحظى على شهادة من الشركة المذكورة أعلاه، يذكر فيها طبيعة المنتج ومكوناته وطريقة إنتاجه.

منتجات تلك المزرعة تباع في محل طرابلس قرب السيتي كومبلكس، وفي بيروت في «بيت السلام الصحي» وفي مؤسسة «سلة الصحة»، كذلك في المشرفية في الضاحية الجنوبية في محل اسمه «زاوية الصحة» وإلى جانبه محل آخر «البدائل العلاجية». كما يسوق باقي ما ينتج في سوق الطيب في وسط بيروت.

في رحلة تطوير الإنتاج العضوي جرت استضافة أبي ربيع في أكثر من ندوة متلفزة، كما تلقى أكثر من ثلاثين شهادة حضور في غرفة الصناعة والتجارة. لعل تجربته تمثل مرجعاً في مجال زراعة المنتجات العضوية وتصنيعها.

كانت وزارة الزراعة معنية بإعادة إحياء الزراعة التقليدية الخالية من المواد المصنعة أو المعدلة جينياً، وبما أن الوزارة كانت تشكو نقصاً في المختبرات والتجهيزات، كما في الطاقم البشري المؤهل للقيام بتلك المهمة، فقد أوكلت إلى كلية الزراعة في الجامعة الأميركية مهمة إجراء الأبحاث والدراسات في مجال الزراعة العضوية. وبينما كان وفد من الجامعة الأميركية يستطلع الأمكنة المناسبة في عكار، وقع الاختيار على قطعة الأرض التي يملكها أبو كدل، بالنظر إلى ما تتمتع به من مواصفات، أهمها بعدها عن الطريق العام ووجود حواجز طبيعية تفصلها عن غيرها من الأراضي التي تستخدم فيها أنواع الزراعات الحالية.

في عام 2002 وقّع أبو ربيع عقداً مع الجامعة الأميركية مدته سنة ونصف سنة. ثم مدد العقد المدة نفسها. بموجبها، تستخدم الجامعة خمسة آلاف متر من أرضه كحقل اختبار وتجارب. كانت النتائج مذهشة في النوع والكم معاً، ما دفع أبو كدل لزيادة مساحة الأرض المستخدمة في الزراعة العضوية لتصل حالياً إلى نحو ثلاثة وعشرين دونماً بالقرب من المنزل. يزرع فيها كل أنواع الخضار والحشائش، كما الفواكه والحمضيات وسائر الأشجار المثمرة. بالإضافة إلى قطعة أرض أخرى بمساحة عشرة دونمات يزرع فيها الزيتون واللوز والتين والعنب.

«البيان سرت»، الشركة التي تشرف على عمل أبي ربيع، هي إحدى الشركات التي تمنح المزارع أو المصنع أو التاجر شهادة إثبات العمل في مجال المنتجات العضوية. يبدأ من فحص التربة وكامل البيئة الزراعية، حتى اختيار البذار العضوي، غير المعدل جينياً، بالإضافة إلى الأسمدة العضوية والأدوية الخالية من السموم، كما أنها ترسل فحاة مفتشين للتأكد من سلامة العمل في سياق الموسم الزراعي.

ويوضح أبو ربيع أن الزراعة العضوية ليست مجرد عودة إلى البيئة الزراعية التقليدية، بل إنها

مغامرة أبو ربيع

الزراعة العضوية التي التزم بها أبو ربيع حملته من وادي الجاموس إلى إيطاليا حيث شارك في «معرض التدوق» عام 2008 (الأخبار)



حواضر المزرعة

اللوز: ثلاثة مواسم لشجرة واحدة

واللوز في حال الزراعة العضوية يباع بأضعاف سعر غيره. وقد باع أبو ربيع هذا العام ما يقارب الثلاثمئة كيلوغرام. بين شهري أيار وحزيران تنضج حبة اللوز وهي لا تزال خضراء فتصل كمية

لا تتعرض أشجار اللوز في مزرعة أبي ربيع لمعظم المشاكل التي تتعرض لها باقي حقول اللوز في عكار. فمزرعته مصممة بطريقة تحمي الأشجار من العواصف التي تأتي على الأزهار، وخصوصاً إذا تفتحت قبل أوانها. هذا ما تكرر كثيراً في السنوات الأخيرة مع الارتفاع المستمر في معدلات الحرارة. إلى جانب الأصناف الأخرى، تحتوي المزرعة زهاء 900 شجرة لوز، تتعدد أنواعها بين الطلياني والإسباني والحلواني وأم عمر والشاكوش. وبخلاف باقي المواسم ينفرد اللوز بتمتعه بمواسم ثلاثة. موسم اللوز الأخضر واللوز الناضج (الفرك) ثم اللوز اليابس. يبدأ موسم اللوز الأخضر في أوائل آذار لينتهي في منتصف نيسان. ويمتاز هذا الموسم بارتفاع ربحيته لأن وزن اللوز يكون في أوجه، كما يلقي رواجاً واسعاً.

المبيعات من المزرعة إلى حوالي السنة أطنان. أما ما يبقى من اللوز فيباع يابساً. ويفضل أبو ربيع أن يبيع اللوز اليابس بعد تكسيده، لأن في ذلك تحقيقاً للمزيد من الأرباح.



يعمد أبو ربيع إلى تجديد نصوص اللوز، لأن الأشجار القديمة تصبح هرمة فيتناقص مردودها. في عمليات التوضيب يفرز اللوز في علب وزن الواحدة منها مئتين وخمسين غراماً، لأنه في عملية التسويق، كلما صغر حجم الكمية الموضبة كلما ازدادت الربحية.

اللوز في مزرعة أبي ربيع لا يخضع لأي عملية من عمليات رش المبيدات، فلقد «تأقلمت مزرعته على الزراعة العضوية» وهو أمر يحصل كما يذكر أبو ربيع بعد سنوات من الزراعة العضوية، لأنه بمرور السنين تتكاثر الحشرات «النافعة» القادرة، حتى من دون الاعتماد على المبيدات العضوية، على مكافحة الحشرات الضارة. وأبو ربيع بالمناسبة يمنع الصيد بتاتاً بالقرب من مزرعته وهذا ما يسمح بوجود دائم لكمية كبيرة من

العصافير التي تؤدي دورها أيضاً في حماية المزروعات، على الرغم من كون تلك العصافير تستهلك قسماً من ثمار المزرعة، لكن ما تاكله العصافير لا يعادل جزءاً يسيراً مما تفتك به الحشرات في حال غياب تلك العصافير.

يحرص أبو ربيع على عدم إدخال أي عنصر يمس عضوية البيئة الزراعية في مزرعته. فالجرار الذي يفلح به أرض المزرعة لا يستخدم في سائر الأراضي حتى لا ينقل معه تربة ملوثة، وفرامة الحشيش كذلك. لذلك لا يستغرب سهولة تسويق منتجاته، إذ على الرغم من كون موسم اللوز الأخضر قد أشرف على الانتهاء، لا يزال أبو ربيع يسوق طلبيات اللوز بناءً على اتصالات هاتفية من مختلف المناطق اللبنانية.

روبير ...